صورة واقعية

من مواقف قدامى النقاد

وكما قلنا تمثل تلك الآراء والنصوص المنطلق الذى صدر عنه الدارسون المحدثون فى القول بدعوى مقاومة النقاد العرب لنزعات التجديد لدى الشعراء العباسيين ، وهى دعوى غير صحيحة — فيما نرى .

ويقتضى التصحيح أن نبدأ بإعادة النظر فى مواقف ذلك الفريق من النقاد على أساس من نظرة شاملة تتخطى ما يمكن تسميته بـ (النتوءات الهشة) الممثلة فى النصوص القليلة والمشوشة التى اعتمد عليها هؤلاء الدارسون ، وانطلاقاً من هذه النظرة يمكننا أن نتبين أن أعلام ذلك النقد لم يكونوا بهذه الصورة من التعصب للقديم والمقاومة لكل جديد ، بالعكس من ذلك نتبين أن الجديد كان دائماً محل قبولهم ، أكثر من هذا أنهم حثوا عليه ، ونبهوا على من سولت له نفسه أن يستعير من غيره ، ولقد جاء الوقت الذى أصبح فيه هذا الشاعر أو ذاك يُفَضَّل على غيره لأنه مجدد ولأنه مبتكر ، ومعنى هذا أن هناك خَطًّا متصلاً فى النقد العربى ليس عماده التعصب ضد الحديث وتقديس القديم ، وإنما عماده قبول التجديد والترحيب به ، وهذا ما توضحه القراءة المتأنية والمجردة من أية

أفكار مسبقة عن ذلك النقد .

وعلى سبيل المثال : **أبوعمروبن العلاء** . . أشهر من اتهموا بالتعصب ضد ما ليس جاهليًا ، لقد نالت طبقة الإسلاميين الكثير من تقدير ذلك الرجل ، وأعجب بواحد منهم على وجه الخصوص هو الأخطل . كما أعجب أيضاً بشعر محدث آخر هو جرير ، الذى كان يُشبِّهه بالأعشى – على نحو تشبيه للأخطل بالنابغة ، وللفرزدق بزهير – والذى كان يجلس إليه يستمع إلى شعره ، وهو يمليه ، ثم يقوم بتصييه من روايته وتصحيحه . كذلك كان يقوم بدور الراوية لما يدلى به الشاعر من أحكام نقدية على غيره من الشعراء . وهذا نفسه هو الموقف الذى كان يتخذه من الفرزدق وذى الرُّمة الذى روى شعره ووصفه بأنه فصيح ، والذى اختار من شعره مثالاً للأبيات المتمكِّنة القوافى ، ومثالاً لأطرف بيت قالته العرب ، كما أبدى إعجابه الشديد بالاستعارة فى قوله :

أقامَتْ بِهِ حتى ذَوَى العُودُ فى الثَّرى
ولَفَّ الثُّرَيَّا فى مُلاءَتِهِ الفَجْرُ

ونراه يختار أغزل بيت قالته العرب من شعر عمربن أبى ربيعة ، كما كان شديد الاستحسان لشعر عَدِىّ بن الرِّقَاع الذى اختار من شعره ومن شعر الراعى ولطِرِمَّاح وذى الرمة أمثلة للتشبيهات العُقْم (التشبيهات المبتكرة) .

وإذا كانت هذه الروايات تصحح ما كان شائعاً عن ذلك الرجل من

إغفاله ، بل اردرائه لشعر الإسلاميين ، فإنها تؤكد أيضاً أن الرجل كان على معرفة بأشعار مُخَضْرَمِي الدولتين – الأموية والعباسية – كأبي حيَّة النميري ، والشاعر المعروف بابن المولى . بل إنه كان على معرفة بشعر بشار – أحد رواد البديع وزعيم المحدَثين – وهو عنده أبدعُ الناس وأمدحهُم و أهجاهُم بَيْتاً ، كما أنه واحد من أصحاب أحسن الابتداءات فى رأيه .

أما الأصمعى فهو مثلُ أستاذه أبى عمرو : يروى للإسلاميين ، ويفضلهم أحياناً على الجاهليين ، وقد جاء فى «الأغانى» أن أبا عبيدة والأصمعى كانا يقولان عن بيتين للطِّرِمَّاح إنه فيهما أشعر الناس ، كذلك يسجل الأصمعى إعجابه بابن هَرْمَة الذى كان يختم به الشعراء ، والذى روى شعره ووثّقه حيث كان هذا الشعر يراجع على روايته .

ولا يلبث أن يختم الشعراء بشاعر أحدث ، هو بشار ، الذى تتبع الأصمعى أخباره ومناسبات شعره يسجلها ويرويها ، وهى مصدر عدد غير قليل من أخبار ذلك الشاعر فى «الأغانى» ، بل إنه يتتبع أوليات شعره وقصص اشتهاره كشاعر مَرْهُوبِ الجانب ، وكشاعر مدَّاح أيضاً ، وهناك أخبار تشير إلى تتبعه لصدى شعره فى نفوس الناس ، ومناقشته أسباب ذيوعه مع الشاعر نفسه . وتراه يعلن إعجابه بقدرة ذلك الشاعر على التشبيه بالرغم من ظروفه الخاصة التى كانت تمنعه من رؤية

الأشياء ، وقد وصفه بأنه (يشبه الأشياء بعضها ببعض فيأتى بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله) .

وقد شرح فى مواضع أخرى أسباب إعجابه بذلك الشاعر ، وهى تدور حول كثرة فنونه وسعة تصرفه ، وأنه كان مطبوعاً لا يكلف طبعه شيئاً متعذراً ، وكان يشبهه من بين القدماء بالأعشى والنابغة الذبيانى . وتجدر الإشارة إلى أن تشبيه هذا الشاعر أو ذاك من المحدثين بشاعر أو أكثر من الجاهليين أو المخضرمين لا يعنى أن ذلك الفريق من النقاد كان يفضل من المحدثين – أو يقبل – من يسير على النهج القديم ، ويحارى القدماء فى كل شىء ، كما هو الظن الشائع لدى الدارسين فى العصر الحديث – فهذا الظن لا يستقيم مع تعليل الأصمعى تفضيله لبشار على مَرْوان حين سئل : أيهما أشعر ؟ فأجاب : بشار (فَسُئِل عن السبب فى ذلك ، فقال : **لأن مروان سلك طريقاً كثير من يسلكه ، فلم يلحق من تقدمه ، ولم يشركه فيه من كان فى عصره ، وبشار سلك طريقاً لم يُسْلك ، وأحسن فيه ، وتَفَرَّدَ به ، وهو أكثر تصرفاً وفنون شعر ، وأغزر وأوسع بديعاً ، ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل**) .

وسجل الأصمعى إعجابه بشعر السيد الحميرى ، الشاعر الذى صرف شعره إلى خدمة مذهبه الاعتقادى ، وقال إنه لولا مذهبه فى سب السلف ما قدم عليه أحداً من طبقته . كذلك نال العباس بن الأحنف قدراً ملحوظا من إعجاب الأصمعى وتقديره ، وقد أنشد بعض شعره

على أنه أحسن ما يحفظ للمحدثين .

واستحوذ أبونواس على إعجاب الأصمعى إلى أبعد الحدود ، وفى «طبقات الشعراء» لابن المعتز قصة تبدأ بمنادمة الأصمعى للفضل ابن يحيى البرمكى ، وينشد الأصمعى بيتاً لأبى نواس فى الخمر ، ثم ينشد القطعة كاملة بناء على رغبة الفضل ، ثم يقول عن أبى نواس إنه . . . بمكان من الأدب . . وهو من الشعر بالمحل الذى قد علمته ، أليس هو القائل :

ذَكَرْتُمْ من الرَّحَالِ يوماً فَغَمَّنَا فلوْ قَدْ فَعَلْتُمْ صَبَّحَ الموْتُ بَعْضَنَا

ثم يندفع فينشد القصيدة بأكملها ، وهى فى مدح الفضل ، ومقدمتها ألصق بالمقدمات الجديدة : تقوم على الغزل . وترفض الرحلة على الإبل ، وتنص على السير فوق النعال ، ومن يقرأ ما صوّره ابن قتيبة على أنه من شروط المقدمة التقليدية ، والتى لم يتمسك هو نفسه بها ، يعلم أى خروج صريح على مَا عُدَّ من التقاليد ، اشتملت عليه قصيدة أبى نواس التى تمثل بها الأصمعى ، الذى صرح فى أكثر من موضع بكثرة روايته من شعر أبى نواس ، كما عنى بتسجيل بعض ما سبق إليه من معان .

ولم يكن أبو العتاهية — بكل خصائص شعره المعروفة — (من سهولة اللغة ، وعامية الموضوعات ، وخفة الأوزان) خارجاً عن دائرة اهتمام الأصمعى ، فقد كان يستحسن شعره ، ويصفه وصفاً ينطبق على

أوصاف الشعر المثالى فى نظره . كما أبدى استحسانه لشاعر عباسى آخر هو محمد بن حازم الباهلى . ورغم التنافس الحاد الذى كان بين الأصمعى وبين إسحاق الموصلى ، والذى قد يعلل بعض ما رُوِىَ من مآخذ الأصمعى على ذلك الشاعر ، لم يتردد الأول فى إعلان استحسانه لشعر الأخير فى أكثر من مناسبة .

وثالث من اشتهروا بالتعصب ضد المحدثين هو أبو عبد الله محمد بن زياد المعروف **بابن الأعرابى** – وغالباً ما تقوم التهمة المنسوبة إليه على أساس موقفه من شاعرين عباسيين نقلت بعض الأخبار عن طعنه عليهما ، وهما أبو نواس وأبو تمام ، كما تقوم على تصريح ينسب إليه يشير فيه إلى تفضيل القديم عموماً .

على أن حقيقة موقفه من الشعراء المحدثين فى عصره لا تختلف عن موقف غيره من النقاد ، قبولاً لشعر أولئك الشعراء وتنويهاً به ، وقد صرح مرة بأنه يختم الشعراء بابن هَرْمَة ، وصرح مرة أخرى بأنه يختمهم بمروان الذى حظى بغير قليل من تقدير ذلك الناقد . ونراه يثنى على العباس بن الأحنف ، وقد وصف شيئاً من شعره بأنه (كلام قريب مليح) .

وهو واسع الاطلاع على شعر أبى نواس ، وقد جعله صاحب أمدح بيت قاله مولد ، كما يثنى على بعض افتتاحياته مستبعداً أن يكون فى مقدور أحد من معاصريه أن يأتى بمثله ، ونراه يشارك جلساءه فى

استعراض شعره فى الخمر واختيار أحسن بيت قاله الشاعر فى الموضوع ، وفى (زهر الآداب) خبر عن طعن ابن الأعرابى على أبى نواس ثم رجوعه عن ذلك ، إلى كتابة شعره وروايته وهذا ما يؤيده خبر عند ابن منظور عن كتابة ابن الأعرابى لشعر أبى نواس فى صحيفة خاصة به كان يخفيها عن الناس .

واحتفل ابن الأعرابى بشعر أبى العتاهية وروى كثيراً من شعره وأخباره ومناسبات شعره ، وتعدى ذلك كله إلى الدفاع الصريح عن الشاعر وإظهار مزايا شعره والإشادة به فيما يشبه المناظرة مع أحد عائبيه الذى عارضه ابن الأعرابى وسفّه رأيه ، منشداً نماذج من شعر الشاعر ، واصفاً مذهبه بأنه (ضرب من السحر) .

كذلك أعجب بشاعر مغمور لم يكن بذى مكانة فى قصور الحكام ، وهو محمد بن حازم الباهلى – الذى سبق أن رأينا إعجاب الأصمعى به – وقد صرح بأنه لا يعرف فى التفجُّع على الشباب ودم الشيب – على كثرة ما قالته العرب فى هذا الموضوع – أحسن مما قال ذلك الشاعر . وهو يجعل الشاعر العباسى محمد بن وهيب صاحب أهجى بيت قاله المحدثون ، كما يبدو شديد الإعجاب بإسحاق الموصلى ، وقد جاء فى «الأغانى» أنه كان يصفه ويقرظه ويثنى عليه ، ويذكر أدبه وحفظه وعلمه ، كما كان يستحسن قوله :

هَلْ إلى أنْ تَنَامَ عَيْنِى سَبِيلُ إن عَهْدِى بالنَّوْمِ عَهْدٌ طَوِيلُ

غَابَ عَنِّى مَنْ لاَ أُسَمِّى فَعَنِّى كلَّ يَوْمٍ وَجْداً عليهِ تَسِيلُ

وقد كان يعتبره – فيما يذكر الحاتمى – من أحسن الابتداءات التى للمحدثين .

هذه أيضاً أمثلة – فقط – توضح أن ذلك الفريق من النقد لم يكونوا بمعزل عن تيار الحياة فى عصرهم ، وأنهم لم يكونوا فى صف القديم على طول الخط ، وأن العكس هو الأقرب للصواب . . ولم نشأ أن نستنفد كل ما نقل من أخبار أولئك النقاد الثلاثة فى هذا الصدد ، كما لم نحاول الوقوف عند بقية زملائهم ، على الرغم من كثرة الأخبار التى تؤكد قبولهم لشعر المحدثين وروايتهم له .

حول شروط القراءة الصحيحة لنصوص النقد العربى

وأمام هذه الحقيقة يعود إلى الذهن السؤال عن الأسس التى أقام عليها دارسو النقد العربى المعاصرون تصويرهم للموقف على أنه تعصب من جانب قدامى النقاد ضد الشعراء المحدثين فى عصرهم ، ومرة أخرى لا نجد إلا مجموعة النصوص التى سبقت الإشارة إليها ، وهى – كما رأينا – قليلة – من ناحية – فضلاً عن عدم توافر الدلالة فى بعضها – من ناحية ثانية – وتعلق البعض الآخر بأحكام عامة لا تقتصر على شعر

المحدثين – من ناحية ثالثة – ثم تعلق البعض الآخر بأمور لغوية ونحوية من ناحية رابعة .

من هنا يمكننا القول – مطمئنين – إن تصوير موقف النقد العربى على أنه موقف الرفض لشعر المحدثين لا يستند إلى حقيقة ذلك الموقف بقدر ما يقوم على أخطاء فى كيفية القراءة والفهم لنصوص النقد العربى القديم . من هذه الأخطاء :

(١) الخلط بين الاتجاه العام المؤثر وبين النصوص المفردة :

وهذا واضح فى تغليب هؤلاء الدارسين لهذا العدد الضئيل من النصوص على تلك الكثرة الهائلة من النصوص المروية عن أولئك النقاد – والتى استعرضنا بعضها – والتى تنقض من الأساس فكرة تعصبهم ضد المحدثين .

والواقع أنه ما لم يؤخذ الاتجاه العام لحركة النقد العربى فى الاعتبار فإنه يكون من الصعب فهم أى موقف من مواقف ذلك النقد ، أو مواقف رجاله . إذ أن مجرد الوقوف عند النصوص – خاصة إذا كانت قليلة وغير قاطعة – لا يكفى ، حيث توجد – من ناحية أخرى – نصوص تنقضها ، وهو ما يمثل إحدى المشاكل التى لا يستطيع تقديم الحلول لها القولُ بفكرة التعصب ، حيث نصبح أمام نصوص متضاربة . وهذا مثال لعدم إمكان الاعتماد على النصوص المفردة .

لقد نقل الدارسون المعاصرون جميعاً – تقريباً – الفقرة التى تضمنتها مقدمة «الشعر والشعراء» لابن قتيبة ، والتى يرى فيها أن لا يخرج متأخر الشعراء عن مذهب المتقدمين فى افتتاح القصيدة . وراح الجميع تقريباً يتهمون ذلك الناقد بالرجعية والجمود ، ودليلهم الوحيد هذه الفقرة ، على أننا ننظر بعد ذلك فى كتاب الرجل فلا نرى أثراً للأخذ بما أعلنه فى مقدمته ، وهذا ما يؤكده استعراض ترجماته لبعض الشعراء المحدثين ممن عُرِفوا بسمات تجديدية خاصة . من أولئك الشعراء بشار الذى اشتهر بأنه زعيم المحدثين وبأنه سلك طريقاً مخالفاً للأوائل ، ومسلم الذى يعد من الرواد المباشرين لمذهب أبى تمام ، ومنهم أيضاً أبو نواس .

ولقد خالف بشار ما نص عليه ابن قتيبة من ضرورة الرحلة على الإبل وقطع الصحراء المخيفة عليها ، وكذلك ضرورة الإلمام بالغزل فى مقدمة القصيدة المدحية ، فترك كل وسائل الرحلة على البر ورحل إلى المهدى فى سفينة وصفها ووصف الرحلة عليها ، كما أعلن إقلاعه عن الغزل فى بعض مقدمات قصائده . و«وقع» مسلم ابن الوليد فى كثير من المخالفات للنهج الذى نص عليه ابن قتيبة ، سواء بإهمال الحديث عن الأطلال والانصراف إلى الحديث عن حياته اللاهية فى مقدماته ، أو بالرحلة على سفينة كما فعل بشار . ومع هذا لا نجد فى حديث ابن قتيبة عن بشار إشارة إلى هذا الخروج عما قرره الناقد ، وإنما يلفتنا عنده وصفه لبشار بأنه من المطبوعين ، وأنه من أشعر المحدثين ، وكذلك اهتمامه

بتسجيل ما سبق إليه من معان ، كما يلفتنا فى حديثه عن مسلم وصفه بأنه (أول من ألطف فى المعانى ورقق القول) دون أن يشير إلى شىء من خروجه على المتعارف – أو ما اعتبره كذلك – فى مقدمة القصيدة . وكان ذلك نفسه هو موقفه مع أبى نواس رغم ما عرف عن دعوته إلى تغيير مقدمة القصيدة ، تلك الدعوة التى تبدو نقيضاً لدعوة ابن قتيبة على طول الخط ، وفيما عدا بعض الملاحظات الجزئية البسيطة لا نسمع فى حديث ابن قتيبة عن أبى نواس سوى عبارات الاستحسان والتقريظ ، والوصف بالعلم والرواية والسبق أيضاً .

هذا مثل على وجوب الاعتماد على الاتجاه العام عند الناقد دون الوقوف عند تصريح مفرد يصدره فى هذه المناسبة أو تلك ثم يتراجع عنه فى نقده التطبيق ، وهناك أمثلة أخرى على رجوع الناقد – صراحة – عن بعض أقواله ، أو تصريحه بالرأى ونقيضه وهو ما يؤكد عدم دقة الاعتماد على النصوص المفردة فى فهم النقد العربى .

وسوف نوضح فى فرصة أخرى ما وراء تصريح ابن قتيبة – الذى جلب عليه تهمة الرجعية – فى حدود ظروفه التاريخية ، وحسبنا أن نؤكد أنه فى مثل ظروف النقد العربى لا يكون أمام الباحث إلا أن يكرر النظر فى الصورة مرات ومرات محاولاً أن يتبين فيها بعض الخطوط التى يمكن أن يكون لها حظ من الوضوح والاتصال ، وهو ما يضفى على الصورة شيئاً من المنطق ويكسبها صفة الاستمرار ويجنبها صفة التناقض ، ويكون

جل اعتماده هنا على الاتجاه العام فى حركة النقد أكثر من اعتماده على النصوص الجزئية ، وإن كان لا يهمل هذه النصوص ، وإنما ينظر إليها من خلال الإطار العام الذى يطبع حركة النقد فى عمومها بحيث يصبح هذا الاتجاه هو الذى يحكم على دقة النصوص- رغم أنه يقوم على أساسها- وليس العكس ، أى أن النصوص الجزئية لا تحكم نظرتنا إلى الاتجاه العام إلا بمقدار ما تتفق مع هذا الاتجاه .

ولا نعنى بما نسميه الاتجاه العام نظرة سابقة تنتخب النصوص لتأييدها ، ويرفض ما يعارضها تحت دعوى عدم توافقها مع هذا الاتجاه ، ولكننا نعنى به نوعاً من الاستقراء القائم على النظرة الشاملة التى قد تتخطى بعض النتوءات التى لا تتوافق مع اتجاه سير حركة النقد ، لا عن عمد لإهمال ما نسميه بالنتوءات ، ولكن لأن هذا الإهمال والتخطى إنما يعتمد على انعدام أثر هذه النصوص ، وبالتالى لا ينبغى الوقوف عندها مادامت عديمة التأثير . ولا يمكن الحكم عليها بعدم التأثير ما لم ينظر إليها فى ضوء غيرها من النصوص . وفى ضوء ملاءمة هذه النصوص واتفاقها مع النتائج ، بحيث تبدو النصوص المهملة غير ذات موضوع ، وهو ما يقوم سببا مشروعاً لعدم الوقوف عندها .

(ب) التخلص من الأفكار المسبقة :

هذا عن وجوب مراعاة الاتجاه العام المؤثر فى حركة النقد والتفرقة

بينه وبين النصوص المفردة كشرط لقراءة النقد العربى قراءة صحيحة . . وهناك شرط آخر وهو وجوب التخلص من الأفكار المسبقة عن هذا النقد . ولقد كان الإخلال بهذا الشرط – مثل سابقه – عاملاً على وقوع الدارسين المعاصرين فى كثير من الأخطاء ، بل لقد عمل على إخفاء الحقيقة التى كانت تكشف عن نفسها – أحياناً – لبعض هؤلاء الدارسين .

وعلى سبيل المثال ، فإن سيطرة الفكرة القائلة بتعصب النقد القديم ضد شعر المحدثين على بعض الدارسين جعلتهم يفهمون بعض النصوص على أساسها دون أن يكون لهذه النصوص صلة بالقضية ، وإلا فأى تعصب يحمله وصف أبى عمرو للإسلاميين بأنهم «محدثون» ، وأى تعصب يحمله قول إسحاق – وهو الشاعر المحدث – لأبى تمام «إنك تَتَكِئُ على نفسك» ، ثم أى تعصب ضد شعر المحدثين – من الوجهة الفنية – يحمله عدم استشهاد اللغويين فى ميدان النحو واللغة بشعر المتأخرين ؟ ولقد وصلت سيطرة هذه الفكرة عند البعض إلى حد حملهم على بتر النصوص والوقوف بها عند النقطة التى تكفل له تأييد فكرته . . وهذا ما فعله الدكتور هدارة فى إغفاله لبقية الخبر المروى عن تعصب أبى رياش القيسى ضد المحدثين خاصة البحترى وأبا تمام ، هذه البقية التى تقول : إن أبا رياش سمع شعر البحترى وأعجب به وعرف صاحبه ورجع عن الحط منه بعد ذلك . بل لقد وصل الأمر بالبعض إلى

حد تجاهل دلالة النص نهائيًا واعتبار هذه الدلالة من قبيل الشذوذ ، وهذا ما نلمحه فى وقوف طه إبراهيم أمام نص الأصمعى فى تفضيله لبشار على مروان مكتفياً بالاستغراب والتعجب ، لأن الأصمعى لغوى ، واللغويون جميعاً – فيما يقول - (كانوا يتعصبون للقدماء على المحدثين ، ولمن هم على طريقة القدماء) ، والأصمعى نفسه – فى رأيه – (من الذين بعدت بهم العصبية فى ذلك) .

ورغم وضوح النص ومجيئه قاطعاً فى الدلالة على تفضيل واحد من رواد الجديد على واحد من المتمسكين بالأسلوب القديم ، إلا أن سيطرة فكرة تعصب اللغويين لقديم جعلت الدارس يتغافل عن المدلول الحقيق للنص مكتفياً بإظهار تعجبه ، وفى هذا التعجب نفسه تكمن المشكلة التى تتمثل فى التناقض بين ما أشيع عن ذلك الفريق من النقاد من معاداة شعر المحدثين وبين نصوص من النوع الذى وقف أمامه طه إبراهيم ، وكذلك بين ما أشيع عنهم من الحض على اتباع القديم وبين ما هو معروف من مهاجمتهم لأدنى صور هذا الاتباع ، وهذا ما دفع البعض إلى القول بأن النقد العربى الخالص قد وضع الشعراء والنقاد جميعاً فى «مأزق» ، وذلك بسبب إلزامه للمحدث بمجاراة القدماء فى كل شىء – كما هو الشائع – ومقاومته فى نفس الوقت لكل صور التوافق مع القدماء فى المعانى والأساليب مما قد يقع الشاعر المحدث فيه أحياناً .

وهكذا تقف الفكرة المسبقة ، والخاطئة فى نفس الوقت ، حائلاً

دون تبين الحقيقة بل دون تقلبها عند انكشافها ، وعاملاً أيضاً على تصور الموقف على غير حقيقته

(جـ) الفهم التاريخى للنصوص :

ومن الشروط المطلوبة لقراءة النقد العربى قراءة صحيحة الفهم التاريخى للنصوص ، أعنى فهمها فى إطار عصرها بما يوضح حقيقة المراد منها ، وقد ساهم الإخلال بهذا الشرط أيضاً فى فهم بعض النصوص على أنها تعنى الغض من شعر المحدثين ، وهناك نصان بالذات أسىء فهمهما وهما : النص المنسوب إلى أبى عمرو فى وصفه لشعر المحدثين بالتفاوت ، وهو ما عناه بقوله «ليس النمط واحداً» . والنص المنسوب إلى ابن الأعرابى فى وصف شعر المحدثين بسرعة زوال الأثر ، وتشبيهه له بالريحان الذى يشم يوماً ثم يذوى فيرمى به ، على حين أن أشعار القدماء تشبه المسك الذى يزداد طيباً بتحريكه .

ومن الواجب النظر إلى هاتين الصفتين فى إطار العصر الذى صدرتا فيه ، ولم تكن صفة تفاوت الشعر بين الجودة والرداءة ، أو الجزالة والليونة صفة خطيرة فى نظر أولئك النقاد الذين صدرت عنهم ، يؤيد هذا إجماعهم على اتصاف شعر النابغة الجعدى بهذه الصفة . وقد عبروا عن ذلك بقولهم عنه إنه (صاحب خلقان ، عنده مطرف بألف وخلق بدرهم) . هذا ما حكاه الأصمعى عن بعضهم ، وقد عزاه مرة أخرى

إلى الفرزدق ، ورواه مرة ثالثة عن أبى عمرو عن الفرزدق ، ويشرح الأصمعى معنى ذلك الحكم : فبينما كان النابغة (فى كلام أسهل من الزلال وأشد من الصخر ، إذْ لاَنَ فذهب) ، وهم ينقلون عن محمد بن سلام قوله (كان النابغة مختلف الشعر) ويذكر ابن سلام أن الأصمعى كان يعجب من النابغة بهذه الصفة (ويمدحه بها وينسبه إلى قلة التكلف فيقول : عنده خمار بواف ومطرف بآلاف) . ويقول ابن قتيبة : أراد العلماء بهذا (أن فى شعره تفاوتاً ، فبعضه جد مبرز وبعضه ردىء ساقط) . وقد وصف الأصمعى شعر أبى العتاهية بأنه (كساحة الملوك يقع فيها الخزف والنوى والذهب) وقد فسرت هذه الصفة بأنها تعنى عدم التكلف ، وهو ما كان يعجب الأصمعى .

وإذا كانت هذه الصفة لم تتسبب فى رفض شعر النابغة ، وإذا كانت محلا للتقدير عند رجل كالأصمعى ، الذى جعلها من صفات الشعر المطبوع ، فإن بإمكاننا القول – من زاوية تاريخية – إن إطلاقها على أشعار المحدثين لم يكن يعنى رفض تلك الأشعار جملة أو التعصب ضدها .

والوصف بالروعة فى الظاهر ، والأثر المؤقت يحدثه الشعر ثم لا يلبث أن يتلاشى هذا الوصف قديم هو الآخر ، وقد عرف به شعر واحد ممن قُبِلَ شعرهم ، وأعنى ذا الرُّمة . فيحكى أبو عبيدة عن جرير وصفه لشعر ذى الرمة بأنه (نقط عروس وأبعار ظباء) ويذكر محمد بن سلام عن أبى

عمرو بن العلاء أنه كان يقول (إنما شعر ذى الرمة نقط عروس تضمحل عن قليل ، وأبعار ظباء لها مشم فى أول شمها ثم تعود إلى أرواح البعر) ويشرح الأصمعى معنى هذا القول بأن (شعر ذى الرمة حلو أول ما تسمعه ، فإذا أكثر إنشاده ضعف ، ولم يكن له حسن) وهذا هو مضمون النقد الذى وجهه ابن الأعرابى إلى شعر المحدثين ، أعنى الوصف بسرعة زوال الأثر الذى يحدثه الشعر .

وإذا لم تكن تلك الصفة من الخطورة — فى نظرهم — بالدرجة التى يسقط معها شاعر كذى الرمة فمن الطبيعى أيضاً أن لا يفهم منها أنها تعنى الرفض لشعر المحدثين .

ومما يجب أن يفهم فى ضوء الإطار التاريخى تلك النصوص التى تشير إلى رفض أولئك النقاد رواية شعر المحدثين ، ومع قلة هذه النصوص ، ومع انصبابها على رواية الشعر بغرض الاستشهاد به نحويًّا ولغويًّا ، وهو الغرض الذى لم يكن شعر المحدثين ، صالحاً له ، ومع ما تأكد من عدم تمسك الرواة فعليًّا بالإقلاع عن رواية أشعار المحدثين فإن طبيعة مهمة الرواة تجعل من عدم روايتهم لأشعار معاصريهم — إن صح ذلك — مسألة أبعد ما تكون عن التعصب والازدراء لتلك الأشعار . إذ كان من المفروض فى الراويَةِ أن يقدم من الأشعار ما ليس فى أيدى الناس ، وبالتالى لم يكن يستشعر كبير فضل فى حفظ شعر المحدثين ، لأنه متداول موجود فى أيدى الناس وهذا ما يوضحه موقف المبرد من البحترى .

وقد أبدى بعض الدارسين دهشته من خلو كتاب «الكامل» للمبرد من شعر البحترى مع ما كان بينهما من صداقة ، فى الوقت الذى أورد فيه المبرد كثيراً من أشعار أبى تمام فى هذا الكتاب . ونستطيع الظفر بالإجابة على لسان المبرد نفسه ، فقد ذكر أبو الحسن الأخفش أنه سمع المبرد يقول : (ما رأيت أشعر من هذا الرجل – يعنى البحترى – لولا أنه ينشدنى كما ينشدكم لملأت كتبى من أمالى شعره) .

ولاشك أن مثل هذه النزعة من الإحساس بعدم قيمة الرواية لأشعار المعاصرين كانت وراء إقلاع الرواة عن إملاء أو رواية شعر الشعراء من أبناء جيلهم ، كما كانت – إلى جانب عوامل أخرى – وراء بعض العبارات التى تعلى من شأن القدم فى ذاته ، والتى تصف هذا الشاعر أو ذاك بالتفوق والامتياز لولا تأخر زمانه ، كالذى سمعناه من أبى عمرو خاصًّا بالأخطل ، ومن الأصمعى خاصاً بابن هرمة ، ومن ابن الأعرابى خاصاً بالقديم عموماً . فمثل هذه العبارات يمكن فهمها من زاوية معينة على أساس الرغبة فى إسباغ بعض القيمة على الشعر القديم الذى تنبنى المكانة العلمية – ومن ثم المكانة الاجتماعية للراوية – على أساس ما يحفظ منه .